دور مؤسسة الحسبة في محاربة الآفات الاجتماعية في الأندلس: السرقة وشرب الخمر أنموذجين

The role of the foundation Alhisba in the fight against social pests in Andalusia: theft and drinking two models

د. عيسى بن الذيب

قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2

تاريخ الإرسال: 2019-02-22- **تاريخ القبول:** 2019-05-19- **تاريخ النشر:** 2020-01-05

ملخص

كان لمؤسسة الحسبة في الأندلس في القرن الخامس الهجري وعلى رأسها المحتسب ومعاونيه دورا هاما على ساحة الرقابة والضبط الاجتماعي من منطلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ تحتّم عليها إرشاد ولاة الأمور في اختيارهم من هم أهل لتولي المسؤوليات كالحكام وأعوانهم والوزراء والقضاة وأعوانهم وكاتبو الوثائق والحرس والعرفاء ....وغيرهم، وكذا مراقبة المؤسسات والمنشآت من دور ومساجد وأسواق وطرقات وحمامات... وما يدور فيها من معاملات يومية للحد من الغش والتدليس والمنكرات التي يحدث يوميا. وبحكم قربها من موقع الحدث فقد كانت هده المؤسسة مطلعة على كل ما يجري في المجتمع بفضل المحتسبين ومساعديهم، وما يملكونه من سلطة ورهبة لزجر كل ما هو مخالف للشرع. نحا ول في هده الورقة دراسة دور تلك المؤسسة في محاربة الآفات الاجتماعية في مجتمع الأندلس خلال القرن الخامس الهجري ـ آفتي السرقة وشرب الخمر ـ "أنموذجين" معتمدين في ذلك على تحليل "ثلاث رسائل في الحسبة " لكل من ابن عبدون وابن عبد الرءوف والجرسيقي، التي شرحت واقع المجتمع الأندلسي وآفاته الاجتماعية ودرست دور مؤسسة الحسبة في محاربتها.

الكلمات الدالة:الحسبة؛ آفة؛ السرقة؛ الخمر؛ الأندلس.

Résumé

‘’El Hasaba’’ est une institution qui a été crée au 5 ème siècle hyjri en Andalousie comme un organe de conseil et d’aide à la décision dans le domaine de la gouvernance et d’action sociale. Nous proposons d’étudier dans cette contribuer le rôle qu’elle a joué en matière de recrutement des

personnels dans les postes de discision et de lutte contre les maux sociaux tels que la consommation de l'alcool et le vol à travers le contrôle des activités des institutions sociales importantes telle que les mosquées, les cafés et les marchés . Nous étudierons fous ces aspects à travers l'analyse de contenu de trois lettres rédigées par trois illustres personnalités : Iben Abdoun, Iben Raouf et El Djarssiki.

Les mots-clés: Elhassaba**,** maux, Alcool, Vol, Andalousie.

Abstract

It is generally agreed that Al HISBA as a social institution has a crucial role in the society. More precisely in the fifth century Almohtasib and his supporters had a great impact in terms of social control and social adjustment. In this sense, they control everything in society as well as daily events and illegal practices even at high levels of the authority. In this case, they intend to guide and orient the leaders to choose convenient ministers, judges and their supporters. They also make control on different institutions such as Mosques, markets, streets, and baths…the reason for that is fighting illegal phenomena that happen in these institutions. Al HISBA as a closed institution to reality, it can practice its duties in a perfect way. In addition, AL HISBA institution has great deal of information concerning what happen in the society due to Al Mohtasib and his supporters. They have the authority to prevent all things that are illegal. For those very reasons, this study aims to investigate the role of AL HISBA institution in fighting the social phenomena in terms of drinking wine and theft. More precisely, the study aims to shed light on these phenomena in terms of the Andalusian society in the fifteenth century Hidjri. This work is based on "Three Letters of AL HISBA" that are Ibn Abdoun, Ibn AbdArraouf, and Aljarsiki. Those letters investigated the social phenomena in the Andalusian society and the role of ALHISBA in fighting these phenomena.

Keywords: Alhisba; lesion; stealing; wine; Andalus.

مقدمة

لا يخلو أي مجتمع مهما بلغ من رقي وازدهار قديما أو حديثا من انتشار آفات اجتماعية، وهذا نتيجة لتقلبات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية وما ينجر عنها على مختلف الأصعدة، وعليه فإن معظم الدول قد سعت قديما أو حتى في أيامنا هذه للحد من انتشارها ومحاربتها بمختلف السبل. ومن ضمن المجتمعات التي شهدت تلك الآفات المجتمع الأندلسي سيما في أواخر عهد الطوائف وبعده، وما آل إليه حال الأندلس بعد أن تسلّط أمرائها على الرعيّة، وخضوع البعض منهم لسلطان الفرنج لدرجة تحالف بعضهم مع النصارى، وقبولهم دفع إتاوات للنصارى حفاظا على سلطانهم(محمود، د.ت)،(السامرائي، وآخرون، 2000)، فأثقلوا كاهل الرعية بالضرائب، بينما انغمس أمرائها وخاصتها في شتى مظاهر المجون والخلاعة والاستغراق في الملذات وشهوات البطن والفرج وحسبنا في ذلك ما وصل إليه المعتمد بن عباد (دوزي، 1914) .

لم يكن حال الموظفين ورجال الدولة بمنأى عن ذلك بعد أن أصبحوا يُقلّدون ملوكهم وأمرائهم (إحسان، 1997)، وهذا ما يُعدُّ من مفاسد الحضارة على حدّ تعبير ابن خلدون في قوله:"ومن مفاسد الحضارة، الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف، فيقع التّفنن في شهوات البطن من الأكل والملاذ والمشارب وطيبها.ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح،من الزنا واللواط"(ابن خلدون، 2003، ص 398) .

وإذا كان هذا هو حال الملوك والأمراء فكيف يكون حال الرعية؟ ولعل هذا ما عبر عنه ابن عبدون المعاصر لفترة الدراسة حيث يقول: "وبالجملة فإنّ الناس قد فسدت أديانهم وإنما... الدنيا الفانيّة والزمان على آخره، وخلاف هذه الأشياء هو ابتداء الهرج وداعية الفساد وانقضاء العالم"(ابن عبدون، 1955، ص 60) .

ومهما يكن من أمر لا يُمكننا أن نكيل ما ظهر من مفاسد في المجتمع الأندلسي أنّ ذلك هو الصفة الغالبة عليه ولا يستثنى منها أحداً، بل أنّ السلطة بما فيها من فقهاء ومحتسبين عملوا كل ما في وسعهم لمحاربة تلك الآفات، وقد تمّ تدوين ذلك في بعض المؤلفات التي كتبت في الحسبة ،ونذكر منها على سبيل المثال ثلاث رسائل في الحسبة وغيرها التي أمدتنا بمعلومات عن الآفات المتفشية في المجتمع الأندلسي قلّما نجدها في مصادر أخرى.

قبل الخوض في إيضاح دور المحتسب ومراقبته لكل ما يجري في المجتمع، كان الأجدر بنا الاشارة إلى الهدف من كتابتنا في هذا المحور تحديدا، مع الإشارة إلى ديوان الحسبة كمؤسسة والشروط الواجب توفّرها في القائمين عليها ودورهم في تقديم النصح حتى لأعلى سلطة في المجتمع، بدء بالسلطان والوزراء وحكام المدينة وأعوانهم وكل من لهم علاقة بالسلطة، والهدف من ذلك هو محاولة منهم إرشاد الرؤساء إلى من هم أهْل لتولّي المناصب العليا في الدولة، هذا دون إغفال دور المحتسب الذي أساسه مراقبة كل ما يجري من معاملات يومية في المجتمع وما ينجر عنها من مخالفات ومحاربتها على أساس الأمر بالمعروف والنهي على المنكر.

1. التعريف بمؤسسة الحسبة

1.1 الهدف من الكتابة في محور الحسبة

إن هدفي من الكتابة في هذا الجانب تحديدا والمتعلق دور مؤسسة الحسبة في الإسلام يرجع بالأساس إلى محاولة إيضاح دور كتب الحسبة في الدراسات الاجتماعية، إذ بالرغم ممّا كتب عن الدراسات الاجتماعية إلا أن هذه الدراسات لم تنل حضّها مقارنة مع غيرها لكون المصادر التاريخية عادة ما تشير إليها عرضًا، وهذا ما يجعل الباحثين يستنكفون عنها ويبتعدون عنها للنقص الواضح في المادة العلمية وعليه اتّجهت بعض الدراسات الحديثة إلى بعض المصادر، ومن بينها كتب الحسبة التي تُعدّ مصادر مهمّة لكل ماله علاقة بما يحدث في المجتمع.

وما من شك أن ما كان يحدث في المجتمعات الإسلامية قديما يتكرر في أيامنا هذه، وسبق لمن كتبوا في الحسبة أن كشفوا لنا عن طرق الغش والتدليس وغيرها من الآفات المتفشية في المجتمع وعملوا على محاربتها، والحد من انتشارها، وقدموا حلولا لها يمكننا استغلالها والاستفادة منها في أيامنا هذه ، وهذا ما أعمل على إيضاحه في دراستي التي اقتصر فيها على بعض الجوانب منها، واقتصر على آفتين فحسب وهما ظاهرتي "السرقة وشرب الخمر".

2.1 أهمية ديوان الحسبة كمؤسسة

لقد أكد الجرسيقي على أهمية ديوان الحسبة واعتبره من أعظم الدواوين وعليه فإن هذا الديوان بحاجة كبيرة إلى الكثير من القوانين، وتتجلّى أهميته من العبارة التي

أوردها حيث يقول:"ليس بعد خطة القضاء أشرف من خطة الحسبة"(الجرسيقي، 1955، ص 119) .

ونظرا لأهمية ديوان الحسبة في ضبط أمور المجتمع كان: "أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها، ولكن لما أعرض عنها السلطان وندب إليها من هان صارت عرضة للتكسب وقبول الرشا لَانَ أمرها، وهان على الناس نظرها"(الماوردي، 1989، ص338)، ولكن ليس معنى هذا أنه:"إذا وقع الإخلال بقاعدة سقط حكمها، ولابد من قائم لله بحجة إلى يوم القيامة" (الماوردي، ص 338) .

أما حقيقتها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا مصداقا لقوله تعالى: "وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ".(آل عمران، آية 104)

3.1 مواصفات القائمين على ديوان الحسبة

يعتبر المحتسب هو الموظف المسئول عن السوق وكان له مركزه المرموق بين الموظفين المدنيين ويطلق على صاحب هذه الخطة في كل من المغرب والأندلس اسم صاحب السوق أو صاحب الحسبة(المقري، 1968). ويوضح ابن سهل في الأحكام الكبرى سبب تسميته بذلك فيقول:"إن صاحب السوق كان يعرف بصاحب الحسبة لأن أكثر نظره إنما كان فيما يجري في الأسواق من غش وخديعة ودين وتفقد مكيال وميزان وشبهه"(ابن سهل، 2007).

وقد أورد السقطي الصفات الواجب توفرها في المحتسب، وما يجب أن يتحلّى به فمن الشروط الواجب توفرها فيه أن يكون فقيها عارفا بأحكام الشريعة ليعلم ما يأمر به وما ينهي عنه، وأن يكون غنيّا حتى لا يأكل أموال الناس بالباطل، والمهونة لأنه لا يهاب إلا من كان له مال وحسب (السقطي، 1931) وينبغي أن يكون المحتسب عارفا بأصناف المعايش، وحيل التجار حتى يستطيع بسهولة معرفة الغش والتدليس الذي يحدث أثناء عمليات البيع.ومن واجبات المحتسب أن يعمل بما يعلم، وأن يكون قوله مطابقا لفعله، وينبغي أن يكون مواظبا على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع قيّامه بالفرائض والواجبات التي تزيد من احترامه، وأن يكون ليّن القول ذا أخلاق حميدة حتى يتسنى له استمالة القلوب عندما يأمر بالمعروف و ينهاهم عن المنكر (الفاسي، 1984).

2. الدور الاستشاري والاجتماعي للمحتسب

1.2 دور تقديم النصح والحث على حسن اختيار أعوان الدولة

لم يقتصر دور المحتسب مع ما يجري في الأسواق من غش وتدليس على الناس فحسب، بل أنه تجاوز هذا الأمر سيما وأن عمل المحتسب أساسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقديم النصح للمسلمين على طريق الاحتساب عليهم تسديدا لشأنهم وإصلاحا لأحوالهم وأفعالهم بغية قمع الظلم والجور والسعي إلى العدل والتّعلق به على اعتبار : "أن العدل مألوف، والخير محبوب والقوام مرغوب والخلاف مرفوض والشر مبغوض، والحق أبلج، وعلى النقيض من هذا أن الباطل معوج، والإهمال والغفلة تكوّن الفقر والقلّة، ويكون ذلك سببا في كل فساد وعلّة،فيكثر الهرج والفساد، ويكون ذلك داعية لخراب البلاد سيما إذا كثر العصيان وزين الشيطان ذلك للناس" (ابن عبدون، ص 3).

وعلى هذا الأساس فقد أولى رجال الحسبة أهمية كبيرة لموظفي الدولة ولم يستثنى منهم حتى الرئيس، وهذا ما يؤكده ابن عبدون في قوله:"يجب أولا أن ينظر في أحوال الرئيس الذي هو القطب كلّه وهو كمركز الدائرة التي لا يكون حسنها وصحة محيطيها وصلاحها، إلا بثبات المركز، وصحته كمنزلة العقل من الإنسان، إذا كان فيه صحيحا، فيكون نظره ورأيه حسنا رجيحا، فبصلاح الرئيس يصلح الأنام، وبفساده يفسد النظام" (ابن عبدون، ص 3-4) سيما إذا ركب السلطان هواه، وغلظ حجابه، وغلّق أبوابه، وكثر حجّابه وأسكت الأخيار، وسمع من الواشين الفجار ما يفسد الدين وصيانة أمور المسلمين (ابن عبدون، 1955) .

وعليه كان لزاما على رجال العلم والدين أن يعرفوا أولا أخلاقه، ويمتحنوا أمره وفعله. وهذا من إكمال النصيحة له، لأنه إن لم يفعل معه ذلك أهل العلم والدين هلك، وأهلك المسلمين. إذا فلا مندوحة أن يولي رجال الحسبة أيضا أهمية لموظفي الدولة من غير السلطان وأكثر ما حثّ عليه ابن عبدون للوقاية من الآفات الاجتماعية والحد منها، هو إصلاح حال من يتولى المسؤوليات وحسن اختيارهم من خراص وقباض، وقضاة، وأعوانهم، ومتولي بيت المال، والحكام وأعوانهم، وكاتبوا الوثائق، ووزراء السلطان وصاحب المدينة، وصاحب المواريث، وأعوان صاحب المدينة، والحرس والعرفاء والسجانين، وعليه فقد اشترط فيهم مجموعة من الصفات كالعفّة، والنزاهة، والتّفقه، والعلم والحنكة والورع والاعتدال والغنى عن الارتشاء، بل ذهب ابن عبدون أكثر من هذا فاشترط أن يكون أكثرهم من الشيوخ سيما صاحب المدينة، وأعوان الحاكم،

وأعوان القضاة.. لكون هؤلاء عرضة للإغراء، أو أنهم ينحرفون عن أداء مهامهم، ويتخذون مناصبهم مطيّة لخدمة مصالحهم(ابن عبدون، 1955) .

2.2 دور محاربة الآفات الاجتماعية

لا تختلف الآفات الاجتماعية المتفشية في المجتمع الأندلسي سابقا بما هو عليه حال مجتمعاتنا في أيامنا هذه وسبق للمجتمع الأندلسي أن عانى منها، وعليه كان السبق لهم في محاولة منهم لوضع حد لتلك الآفات، وتزخر كتب الحسبة بأمثلة حيّة تم رصدها في مؤلفاتهم فكشفوا الغموض عما يجري في مجتمعهم دون تستّر، وحالوا إيجاد حلول لتلك الآفات التي تعتري مجتمعهم، وهذا ما لمسناه في كتبهم التي وصلتنا، وأخص بالذكر هنا على سبيل المثال " ثلاث رسائل في الحسبة لكل من ابن عبدون والجرسيقي وابن عبد الرءوف وكتاب آداب الحسبة للسقطي ودور رجال الحسبة في محاربة تلك الآفات التي سوف أركز عليها وأعمل على الوقوف على بعضها، وأملي من ذلك أن نتخذ منها نبراسا للحد بما يجري من آفات في مجتمعاتنا، وسوف أقتصر على البعض منها وأخص بالذكر منها ما ينخر أجساد الأمم الإسلامية ويعطي صورة لا تليق بها لكون تلك الآفات لا تتماش والشريعة الإسلامية.

3. دور مؤسسة الحسبة في محاربة الافات الاجتماعية

1.3 محاربة افة السرقة

1.1.3 تحديد حجم افة السرقة

لم يسلم المجتمع الأندلسي من ظاهرة انتشار آفة السرقة وقطع الطرقات، ويرى بعض المؤرخين أن تلك الآفة كانت متفشية سيما بين الطبقات المهمّشة، وهذا نتيجة التمايز الاجتماعي الذي أفرزته مرحلة الترف، فنجم عنها ظهور فئة عاجزة عن تحصيل عيشها ناقمة عن الأوضاع ومتمرّدة على شروط الحياة الجديدة، فاتخذت من اللصوصية سبيلا وهذا ما نستشفّه من الإشارة التي أوردها المقري في قوله:"بلاد الأندلس لها دروب تغلّق بأغلاق بعد العتمة وذلك لشطارة عامّتها، وكثرة شرهم وإعيائهم في أمور التلصص"(المقري، 219)، ولعل ما يؤكد انتشار آفة السرقة تلك الإشارات التي وردت في المصادر ، فابن الخطيب يشير إلى ذلك في قوله:"وكثر التّعدي في الطرق والدوابر في السبل، والفتك بالرّفاق" (ابن الخطيب، 1956، ص 249) . كما أشارت بعض النوازل، وكتب الحسبة إلى تلك الظاهرة فابن الحاج في إحدى نوازله يشير إلى ذلك بقوله:"نزل عندنا في

بعض الأعوام خوف شديد من كثرة السراق بالليل، فذهب بعض جيران حومة إلى التحصين على أنفسهم"(بوتشيش، د.ت، ص192).

ولم تكتف المصادر إلى الإشارة لتلك الظاهرة فحسب بل ذكرت حتى صفات اللصوص، وأحوالهم وحيّلهم والأوقات التي يتحيّنونها لارتكاب جُرمهم، والفئة التي تنتشر فيها، فمن صفاتهم أنهم عادة ما يتميّزون بشعر طويل، ويحملون رماحا طويلة وخناجر، وهذا ما يزيد من هيبتهم، ويرفع من نفوسهم فهم فسقة، فجرة، حلالون، معربدون، والغالب على هؤلاء أنهم من الشباب العزاب، وكان هؤلاء يتحيّنون الفرص للإيقاع بضحاياهم، ويختارون من ذلك بعض المناسبات كالاحتفالات، والأعياد والأعراس، أو زمن الصيف، وتحديدا أثناء خروج الناس لجني محاصيل حقولهم، فيجد اللصوص في ذلك فرصة لهم يستغلونها نظرا لكثرة الهرج، واختلاط الناس في المناسبات، أو أثناء خلاء القرى من الناس وقت المصيف، فحين تخمد الحركة ويسود الظلام، ويغفل الحراس عن مراقبة طرقات المدن يقدم اللصوص على نهب أموال الناس، وحوانيتهم، وانتهاك حرمات منازلهم (ابن عبدون، 1955).

وتعددت الأساليب التي يتّبعها هؤلاء للتّمويه، فكانوا يتلثمون سيما في العهد المرابطي لكون هؤلاء (المرابطين) يلتزمون اللثام ولا يتخلّون عنه (البكري، د.ت)،وعليه كان الدعرة، والسراق يتلثّمون لإيهام الناس أنهم منهم، واستغلوا ذلك لانتهاك حرمات الناس، وقطع الطرق، وهذا ما تفطن إليه ابن عبدون وحدث به: "يجب أن لا يلثم إلا صنهاجي، أو لمتوني أو لمطي"(ابن عبدون، 1955، ص28) ، لكون الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يتلثم يلثمون على الناس ويأتون أبوابا من الفجور...بسبب اللثام وهْماً.

ومن الأساليب الأخرى التي يستعملها السُّرَاق سيما في الأسواق أنهم كانوا يتحيّنون انعقاد الحلقات التي يعقدها القصاص، أو الشعراء الذين يستعرضون مهارتهم في القصص أو الشعر، أو الحواة الذين يقومون بألعاب سحرية فيأخذون عقول المشاهدين، وفي أثناء انشغال الناس يعمل اللصوص عملهم (ابن عبد الرؤوف، 1955) ولم يكتفوا بهذا فحسب، بل من الحيّل التي يستخدمها اللصوص أنهم يشاركون غيرهم للإيقاع بضحاياهم. وأذكر على سبيل المثال لا الحصر إشراكهم للبخارين الذين يجوبون الأسواق حيث يقوم هؤلاء برش المياه في وجوه المشترين فتكون تلك اللحظة

فرصة للصوص فإذا نهض المشتري وابتعد عنهم يتقاسمون ما تمّ سرقته فيما بينهم (ابن عبدون، 1955).

2.1.3 طرق محاربة آفة السرقة

ما من شك فيه أن كل آفة تخالف الشرع إلا وعملت السلطات على وضع حد لها وقطع دابرها، وهذا ما عملت به السلطات الأندلسية سيما في دروب وأزقة مدنها، ومن بين الإجراءات التي أقدمت عليها تلك الصورة التي أوردها لنا المقري حيث يقول:"أن بلاد الأندلس بها دروب تغلق بعد العتمة، ولكل زقاق بائت فيه له سراج معلق، وكلب يسهر، وسلاح مُعد، وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم." (المقري، 219) وللحد من تلك الآفة زوّدتنا كتب الحسبة بحلول نذكر منها :

- الاحتراس بالجند عند خلاء القرى سيما زمن الصيف
- تفاديا لوقوع السرقة حثّ مُؤلفي كتب الحسبة على إخراج الشبان إلى عمل الصيفة والإبقاء على الشيوخ في القرى وإجبارهم على ذلك إذ هو أحسن وأجزم لقطع الشر والضرر.
- حث الآباء على توعية أبنائهم وغلمانهم ونهيهم عن إتيان الشر
- في حالة وقوع سرقة أو جراحة في القرية يؤخذ كل من له ابن عازب، ويتم تأديب وتغريم الشيوخ على ذلك وهذا من باب التخويف للحد من السرقة.
- أما في حالة ما إذا لم يأت تخويف العزاب وآبائهم بالمخاوف واستمر الحال على ما عليه يأتي الحل الأخير المتمثل في إقامة الحد المتمثل في القطع أو الصلب(ابن عبدون، 1955).

وتجنبا لسرقة البيوت والمحلات كشف السقطي عن حيلة كان عادة ما يستخدمها الخدم والنساء في السرقة سيما في البيوت والمحلات التي يعملون بها، حيث كانوا يقدمون على رسم المفاتيح في الطين والعجين ويتقدمون بها لصانعي المفاتيح لصنع شبيه لها عن تلك الرسوم، وبتلك الطريقة يسهل عليهم سرقة البيوت والمحلات، وهذا ما هو منتشرا في أيامنا هذه بكثرة (السقطي،1955).

وبالرغم ما قامت به بالسلطات، وما قدمه لنا رجال الحسبة في مؤلفاتهم من حلول لكن الظاهر أن انتشار آفة السرقة في المجتمع الأندلسي لم يوضع لها حدا نهائيا، وهذا ما نستشفه مما جاء به صاحب نفح الطيب حيث يقول:"ولا تكاد في الأندلس تخلو من

سماع، دار فلان دخلت البارحة، وفلان ذبحه اللصوص على فراشه "وهذا يرجع التكثير منه والتقليل إلى شدة الوالي ولينه، ومع إفراطه في الشدة وكون سيفه يقطر دما فإن ذلك لا يعدم، وقد آل الحال إلى أن قتلوا على عنقود سرقه شخص من كرم فلم ينته اللصوص."(المقري، 219)

2.3 محاربة افة شرب الخمر

بالرغم من أن شرب الخمر وبيعها محرما بأدلة من القرآن والسنة والإجماع وهذا مصداقا لقوله تعالى:"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"(المائدة، آية90) . كما جاء تحريمه في سنة رسول الله صلى عليه وسلم في قوله:"كل مسكر حرام" وفي الإجماع قول ابن عطية في تفسيره:"حرمت الخمر بظاهر القرآن ونص الحديث وإجماع الأمة" (ابن عطية، د.ت، ص575).

إلا أن ظاهرة شرب الخمر كانت متفشية في المجتمع الأندلسي، وارتبطت بانتشار مجالس اللهو والطرب، وعليه كانت الاحتفالات والأعراس مسرحا مفضلا لإقدام الفساق، وأهل الشر من الشباب على شرب الخمر، وقد أشار ابن عبدون إلى ذلك وأكد على تجريدهم من السلاح قبل إقبالهم على الأعراس وإقدامهم على الشرب (ابن عبدون، 1955) تفاديا لما ينجر عن ذلك وهم سكارى، كما حدد لنا بعض الأماكن التي كانت تُعدُّ وكرا وبيوتا لشاربي الخمر حيث كانوا يفضلون سيما الأماكن الخالية بعيدا عن مرأى الناس كضفاف الأودية، وحسبنا في ذلك وادي اشبيلية الذي عجز بعض الولاة المظهرين للدين قطع ذلك منه، وهذا ما نستشفه من قول المقري:"وأن جميع أدوات الطرب، وشرب الخمر فيه غير منكر، لا ناه عن ذلك ولا منتقد، ما لم يؤد السكر إلى شر وعربدة، وقد رام من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك، فلم يستطيعوا إزالته"(المقري، 219) .

كما لم تكن بعض الجنات والحدائق، والقوارب المخصصة للنزهة بمنأى عن شرابي الخمر (ابن عبدون، 1955)، بل وصل بهم الأمر إلى اللجوء حتى للمقابر، وحسبنا في ذلك مقبرة اشبيلية التي اتّخذوها وكرا لهم، وهذا ما يعاب على أهلها، ويتضح لنا ذلك جليا من قول ابن عبدون:"وباشبيلية التي هي مصر عظيم ولا مقبرة فيها تقوم بها، وأقبح ما في مقبرتها وبها يعاب أهل بلدنا السكنى على ظهور الموتى لقوم يشربون الخمر، وربما يفسقون، وقد أحدثوا فيها خلوات وسروبا تجري على الموتى."(ابن عبدون، ص 26).

ونظرا لكون آفة شرب الخمر تؤدي بأصحابها إلى ذهاب عقولهم، ودخول السكاري في حالة اللاوعي وهذا ما يترتب عنه أفعال شنيعة فيقعون فيما لا يحمد عقباه من انتهاك للحرمات، وفعل المنكرات من تعدي على الناس والتهجم عليهم حتى في بيوتهم، وتكاد أفعالهم تلك أن تضع حدا لحياة غيرهم، وهذا ما أكدته كتب الفتاوى والنوازل (ابن سهل، 1995؛الونشريسي، د.ت)، بل وصل بهم الحد إلى الوقوع في زنا المحارم (ابو الطرف، 1992) أو تطليق زوجاتهم وهم على تلك الحالة (ابن رشد 1987).

وبناء على ذلك فقد تصدّى رجال الحسبة لتلك الظاهرة وعملوا على محاربتها فكان المحتسب إذا لقي من يبيع الخمر يقوم بتأديبه، وكسر أوانيه (ابن عبدون 1955)، وإقامة الحد على شاربها، وحدّه الجلد، ويُراعى في ذلك أن لا يجلد السكران إلا بعد استفاقته، ويتعدى تأديبهم أحيانا حتى الزّج بهم في السجن جزاء أفعالهم (ابن عبدون، 1955).

خاتمة

من دراستنا السابقة للآفات الاجتماعية المتفشية في المجتمع الأندلسي يمكننا الخروج بعدة نتائج والتي اقتصرنا فيها هنا على ظاهرتي السرقة وشرب الخمر، رغم أن المجتمع الأندلسي كغيره من المجتمعات مليء بآفات أخرى رصدتها لنا كتب الحسبة:

- أن مؤلفات الحسبة شرّحت المجتمع الأندلسي وأمدتنا بمعلومات قلّما نجدها في مصادر أخرى؛
- أن سبب انتشار تلك الآفات يرجع أساسا إلى التمايز الطبقي الموجود في المجتمع الأندلسي؛
- ان انتشار اللهو والمجون والانغماس في الملذات والابتعاد عن الدين الاسلامي كان سببا في انتشار تلك الآفات؛
- رغم وجود مؤسسة الحسبة التي كانت لها اليد الطولى في محاربة تلك الآفات، إلا أنها لم تتمكن من القضاء عليها كلية لتجذّرها في الوسط الاجتماعي؛
- إعطاء أهمية لما كتبه سابقينا للاستفادة منها وتنوير مجتمعاتنا لما هو أسمى سيما وأن تلك المؤلفات أعطت لنا بعض الحلول لما عايشه المجتمع الإسلامي في الأندلس فتكون عبرة لنا في أيامنا لأن ما حدث بالأمس هو ما نعيشه اليوم.

المراجع

1. القران الكريم
2. ابن الخطيب، 1956. تاريخ اسبانيا الاسلامية أو كتاب أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، دار الكشوف، بيروت، لبنان.
3. ابن خلدون عبد الرحمان ، 2003.المقدمة، منشورات محمد علي بيضون،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
4. ابن رشد الجد، 1987. فتاوى ابن رشد، ج 1، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي،دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
5. ابن سهل، 1995. الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى، ج 2 سفر 4 تحقيق نورة محمد عبد العزيز التويجري.
6. ابن سهل، 2007. الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام تحقيق يحي مراد، دار الحديث، القاهرة.
7. ابن عبدالرءوف، 1955. في آداب الحسبة والمحتسب، نشرت ضمن ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة.
8. ابن عبدون،1955. رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، نشرت ضمن ثلاث رسائل أندلسية تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة.
9. ابن عطية الأندلسي، د.ت. تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الناشر دار ابن حزم، القاهرة.
10. أبو المطرف عبد الرحمان بن قاسم الشعبي المالقي،1992. الأحكام، تقديم وتحقيق الصادق الحلوي دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
11. البكري، د.ت. المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك مكتبة المثنى، بغداد.
12. بوتشيش ابراهيم القادري،د، ت. مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت.
13. الجرسيقي عمر بن عثمان بن العباس، 1955. نشرت ضمن ثلاث رسائل اندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.
14. حسن احمد محمود، د.ت. قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة.
15. رينهار تدوزي،1914. المسلمون في الأندلس .اسبانيا الإسلامية، ج 3 ترجمة، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
16. السامرائي ابراهيم وآخرون،2000 م. تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان.

17. السقطي المالقي محمد،1931. في آداب الحسبة، نشر ليفي بروفنسال، باريس، مطبعة آرنستليرو.
18. عباس إحسان، 1997. تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق
19. الفاسي عبد الرحمان الفاسي، 1984. خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين، دار الثقافة الدار البيضاء.
20. الماوردي، 1989. الأحكام السلطانية والولايات الدينية،تحقيق احمد مبارك البغدادي الناشر مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت.
21. المقري التلمساني،1968. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب مج 1، دار صادر بيروت.
22. النسائي، 1436 هـ. سنن النسائي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
23. الونشريسي، د.ت. المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، ج 2 خرجه جماعة من الفقهاء، بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان.